من تراب الطريق (٣٣٥)

قوة الداخل أغنى من أى بريق !! (*)

تختلف قدرات الناس على احتمال الفشل والإحباطات .. منهم من يتماسك ويصمد ، ومنهم من يتجاوزها ويمضى ، ومنهم من يسقط ويتهاوى ، أو يقع فريسة لعقد نفسية ومركبات نقص تنضح فى سلوكه ومعاملاته .. ما ظهر منها أو ما استطاع إخفاءه أو مواراته .. وأكثر العقد النفسية نضوحا على الناشبة فيه ـ العقد التى لا يتنبه إليها أو يعرف جذورها وأسبابها .. والوقوع فى وهدة العقد أو مركبات النقص فرع على ضعف داخلى يقترن غالبا بقلة الثقة بالنفس مع الاهتمام بادعاء العكس !!

وكما تتعدد أسباب العاهات الجسدية أو العضوية ، تتعدد أيضا أسباب العاهات أو العقد النفسية أو مركبات النقص .. الفارق بينهما أن العاهات العضوية تتلقى مواجهة جسدية تلقائية تعويضية ، وقد تستعين بأجهزة صناعية تعويضية كالأطراف الصناعية والنظارات الطبية والسماعات وأجهزة تنظيم أو تقوية نبضات القلب أو دعامات توسيع الشرايين .. إلخ . أما العاهات النفسية والعقد ومركبات النقص فقد تكون مخفاة عزيزة الاكتشاف إلاَّ على الخبراء ، وإلى حد الاستحالة على الواقعين فى وهدتها ، ثم إن علاجها يحتاج إلى جوار الخبرة التحليلية

(*) المال ٥/ ١٠/ ٢٠٠٩

والعلاجية النفسية ، يحتاج إلى تيقظ وتعاون إرادى وواع ومتفطن من المصاب بعللها وأسقامها .. وأول مقومات العلاج الذى لا يجرى إلاَّ بالتعاون بين الأخصائى والمريض ، أنه لابد أساسًا من معرفة جذورها ومركباتها وتراكماتها .. ودور الأخصائى النفسى هنا لازم وبلا بديل .. هناك مثلا من لديهم عقدة أو خوف من الارتفاعات ، وهناك من لديهم عقدة أو خوف من المياه ، ومنهم من يعانون من رهاب مواجهة الحياة أو ضعف الثقة بالنفس !

وصاحب العاهة الجسدية ، يعوضها تلقائيا بنمو الأعضاء التعويضية ، كاشتداد قوة إبصار إحدى العينين أو قوة سمع إحدى الإذنين إذا أصيبت أو وهنت الأخرى ، أو بقوة أحد الساعدين لتعويض الآخر .. وهكذا .. أما العاهة أو العقدة النفسية أو مركبات النقص ، فلا تواجه إلاّ بعمل إرادى متفطن إلى مكمن العلة أو الداء .. وهذه المواجهة الإرادية ليست ميسورة المنال لدى ضعاف النفوس أو الذين تمكنت منهم العقد النفسية .. بل قد يكونون غافلين عنها ناهيك عن أن يتفطنوا لمقاومتها أو علاجها وذلك على خلاف العلل البدنية !

لقد أدرك العقاد بذكائه وقوة إرادته أن برئتيه ضعفًا فكان حريصا على جفاف المحيط ، سواء فى سكنه الذى اختاره على مشارف الصحراء ، أو فى رحلاته إلى أسوان ، أو فى الصبر على حمامات الدفن فى الرمال .. وكانت ثقته فى نفسه أقوى من كل ما واجهه من صعاب .. باع مكتبته أكثر من مرة ، وحاصرته الحاجة أحيانا ، فلم يتزعزع إيمانه

بقامته وقدراته .. لم يهتز حين خسر انتخابات مجلس النواب ، وكذلك الزعيم الكبير مصطفى النحاس الذى خسر الانتخابات البرلمانية فى دائرته سمنود .. فلا نَقَصَ العقاد أو اهتز ، ولا نَقَصَ النحاس أو أحس بالعار ! وواجه العقاد الأمر بثقة ماضية وحكمة بالغة حين قال : «قيمتك فى نفسك ، وبواعثك أحرى بالعناية من غاياتك .. أو حين قال : «إذا أحبك الناس مخدوعين فلا تفرح ، وإذا كرهك الناس مخدوعين فلا تحزن .. بعض الكراهات خير لك من بعض المحبات» !

قيمة الإنسان فيه ، لا فى مرايا الآخرين .. مستوية كانت أو محدبة أو مقعرة ، ولكن تنشب الأزمة حين تتغلغل التفاهة وقلة القيمة وهوان الشأن إلى الداخل .. وكثيرا ما يكون لهذا الهوان مقدمات قد لا يمسك بها الواقع فى وهدتها ، ولكنها تتحكم فى مسارات حياته .. أحيانا بالوعى وأحيانا باللاوعى .. كشأن الجازع من العمل الحر الهارب منه إلى حماية وأمان الوظيفة العامة على نظام : «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه» ! .. فإن فاته الميرى طلب الأمان فى الوظيفة الخاصة ، حتى وإن دفع فيها من كرامته !!

والخوف من مواجهة الحياة خوف من المجهول يزيده ضعف الثقة بالنفس أو الإحساس بقلة الحيلة ، وقد يغذيه استسهال الحلول الموصلة للثراء أو اليسار أو مراقى السلطة أو المجتمع ، باللجوء أحيانا إلى الوساطات ، أو الإقدام على الزيجات الأكثر حسبا أو الأكثر مالا ! وأمثال هذه الحلول تتضافر مع العقد النفسية ومركبات النقص فتزيد

كُمُونها وتمكنها من الشخصية التى لا تشعر بحكم العادة ـ بحقيقة ما يعتمل ويتراكم فى داخلها من عقد نفسية ومركبات نقص تنضح فى سلوكيات وتصرفات لا يستطيع الواقع فى وهدتها أن يلتفت إليها ناهيك عن أن يتفطن إلى علتها !

أمثال هؤلاء لا يصمدون للفشل وهو قدر على جميع الناس ، ويسرع إليهم الإحباط فلا يتماسكون كما يتماسك الأقوياء ، وقد يعتريهم الاكتئاب والمزيد من مركبات النقص لمجرد التقدم فى السن أو الإحالة إلى المعاش .. وتسيطر عليهم العقد الكامنة التى تؤدى إلى المزيد من فقدان الثقة بالنفس مقترنة بالرغبة فى التعويض بالمظاهر ظنا أنها سوف تستر خواء الداخل !

أقوياء الداخل هم الأقوى على الإخلاص والوفاء والمحافظة على الصداقات .. لا يصمد الضعيف للإخلاص ولا يقوى على الوفاء .. ولا تجد له صديقا تدوم صداقته وإياه .. أخطر ما يصيب الآدمى خواء وضعف الداخل ، قوة الداخل هى الصمام الواقى من تداعيات العقد النفسية ومركبات النقص ، وهى الواقى أيضا من الخوف أو الجزع أو الإحباط أو فقدان الثقة بالنفس لدى من لا يتحملون ما قد يصادفهم من ملمات أو إخفاقات ! .. قوة النفس متانة داخلية ومضمون خصب ، وتربيتها غاية كبيرة تحتاج إلى عزيمة ماضية وهمّة صادقة !

*****